٣ - رسالة المربي

الطريقة العملية — مميزاتها — الطريقة العلمية — عملية النمو

للأستاذ كمال السيددرويش

لجأ رجال التربية إلى الطريقة الطبيعية السيكولوجيه يبحثون خلالها عن الطريقة العملية التي يمكن اقتباسها لإدخالها في المدرسة الحالية

لقد زودت الطبيعة الإنسان بغرائزه ففرضت عليه أن يتعلم سواء أراد أم لم يرد... أفلا تكون قد زودته في نفس الوقت بالطريقة العملية التي نحن بصدد البحث عنها وعن مميزاتها ؟ قد نجدها لدى الإنسان حين يستجيب لغرائزه . ولكن الإنسان الحالي المتحضر يتحكم في تسيير سلوكه مراعيا في ذلك تقاليد المجتمع الحالي فلا يسمح لغرائزه بالظهور في شكلها الطبيعي إلا بمقدار ما اصطلح المجتمع على السماح به

ولذلك يجب علينا أن لا نبحث عن الطريقة الطبيعية للتعلم لدى هذا الإنسان المتحضر المتكلف؛ والذي يظهر غير ما يبطن ويعمل غير ما يشتهي . وإنما يجب علينا أن نبحث عنها لدى الإنسان البدائي الذي يعيش على الفطرة أو لدى الطفل الناشئ الذي ينطلق على سجيته ولا يعبأ بمن حوله من الناس . ولو نظرنا إلى الطريقة الطبيعية التي يتعلم بها الإنسان البدائي أو الطفل الناشئ لوجدنا أنها طريقة عادية جدا ؛ طريقة طبيعية تتمشى مع الطريقة السيكولوجية . يتعلم الطفل في منزله كل شئ ، يتعلم الكلام ويتعلم المشي ولكن كيف ؟ ألم يطلب إليه والده أن يتهيأ ليأخذ درسا في الكلام أو في كيفية الأكل وهلم جرا كما تفعل مدارسنا الحالية ؛ ولكنه اقتبس ذلك كله دون أن تشعر الأسرة بكيفية تعلمه . هو يتعلم عن طريق غير مباشر ، عن طريق حياته في الأسرة وعن طريق تفاعله معها . هو في حاجة إلى أمه دائما لأن لديها الثدي مصدر غذائه . فإذا ابتعدت عنه أمه لتقضي عملا ما ، شعر بحاجته الماسة إلى ندائها . قد يلجأ إلى البكاء ولكن البكاء قد يؤدي إلى مجئ الأخ أو الأخت أو الوالد فهل يجد بغيته عندهم ؟ كلا . هو يريد أمه بالذات دون غيرها . وعلى ذلك فهو مضطر إلى ندائها . وهكذا ينطق كلمة « ماما » أو هكذا يتعلم الطفل كيف يتكلم . مشكلة تثور في وجهه ؛ مشكلة حيوية بالنسبة له تضطره إلى التفكير في حلها والتغلب عليها . ويشعر الطفل أثناء ذلك بقيمة ما يتعلمه فلا يحب إذا رأينا سلوكه خلال ذلك سلوكا تلقائيا . فهو ينطق بمحض رغبته ويتعلم بمحض إرادته ، ثم سرعان ما نجده يستعمل ذلك العلم — الذي كان غرضا في أول الأمر — وسيلة لتحقيق أغراض حيوية أخرى ترتبط به . فكلمة ماما سرعان ما تجر معها غيرها من الكلمات : « عاوز ماما » وهكذا

هذه هي الطريقة العملية للتعلم داخل الأسرة، وهي نفسها الطريقة الموجودة لدى الإنسان البدائي ولدى الطبقات التي ما زالت حتى اليوم تعيش على الفطرة . يصحب الابن فيشاهد والده متوجها إلى الحقل فيسأل : لماذا ؟ ويذهب مع والده فيراه وهو يزرعه . ينظر إليه أولا ثم سرعان ما يشترك شيئا فشيئا ، في حراسة الماشي وإطعامها أو في السير خلف المحراث ، وهكذا يشترك اشتراكا عمليا في الزراعة فيتعلمها لأن عليها تتوقف حياته وحياة أسرته . لقد امتص واشتق جميع ما يلزمه من معلومات حتى أصبح في النهاية فلاحا أصيلا مع أنه لم يتلق أي درس في أصول الزراعة

هذه هي الطريقة الطبيعية العملية السيكولوجية التي يمكن أن نلاحظ عليها الميزات الآتية :

إلى العمل المنتصر لا ضد الطغاة من البشر وحدهم.. بل أيضا ضد أعدائهم الأقدمين : الجوع والشقاء واليأس ؟!

أيها الأمريكان :

نحن قوم نطالب بالحرية وأنتم قوم تقدسون الحرية. فاحذروا أن يجركم الثعبان البريطاني إلى مالا نحب وما لا ترضون فتصبحوا على ما فعلتم نادمين

أبو الفتوح غطيمة

١ — إن المتعلم يبدأ فيها كنتيجة لاعتراض مشكلة ما سبيل التعلم ، وإن مدى استجابته لها يتوقف على مدى حيويتها بالنسبة إليه

٢ — إن نزوع المتعلم إلى حل المشكلة نزوع تلقائى نابع من ذات نفسه وغير مفروض عليه من الخارج

٣ — إن ظاهرة التغير — لا الجمود — هى التى تلازم سلوك المتعلم ، وإن المتعلم هو الذى يسيطر على تغيير سلوكه حتى يصل إلى تحقيق هدفه النهائى

٤ — حيوية المادة التعليمية وثبوتها وعدم قابليتها للنسيان وكيف يمكن أن تنسى وقد أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياة الإنسان

٥ — إن المتعلم يتعلم فيها عن طريق غير مباشر بمعنى أن التعليم ليس هدفا فى حدذاته ، وإنما هو غرض يتحول إلى وسيلة ترمى إلى تحقيق هدف جديد ... يغدو بدوره وسيلة أخرى تفتح أمام الإنسان آفاقا جديدة وهكذا تظل المعلومات مستعملة باستمرار فتظل لذلك دائما أبدا خبرة حية نابضة فى القلوب والأذهان

٦ — إن ظاهرة النمو والاستمرار فى التعلم صفة أساسية فى الشخص الذى يتعلم بهذه الطريقة؛ لن ينقطع تعلمه ما دام يحيا ويعيش وسيظل يطلب العلم من المهد إلى اللحد

٧ — إن الناحية العملية تغلب على هذه الطريقة . فالطفل داخل الأسرة كالإنسان البدائى فى الغابة وكالفلاح فى الحقل يعتمد على الناحية العملية فى تعلمه إلى حد كبير

لقد تعلم الطفل النطق لينادى أمه وقد استجابت لندائه فانحلت المشكلة ... ولكن ماذا يفعل إذا ناداها فلم تلب النداء ؟! هذه مشكلة جديدة تستدعى منه التفكير والعمل على حلها . قد يحاول الذهاب إليها بنفسه سعيا على أربع ... ولكن المشى أفضل لأنه أسرع فليتعلمه هو الآخر . وهو فى كل هذه الأحوال يتعلم بطريقة عملية ؛ يقع حينا ويسير حينا آخر . إن الطريقة الطبيعية ذات مظهر عملى يتجلى بوضوح فى ممارسة المتعلم بنفسه لما يتعلمه

٨ — إن هذه الطريقة تتمشى مع الطريقة السيكولوجية بمعنى أنها تستند إلى غرائز الإنسان . فنداء الطفل لأمه مصدره حافز غريزى هو البحث عن الطعام

٩ — إن هناك تماثلا وتشابها بين هذه الطريقة وبين الطريقة العلمية الحديثة ؛ تلك التى وصل إليها علماء العلوم التجريبية مثل علماء الطبيعة أو الكيمياء ، والتى تعتبر فى الحقيقة سر ازدهار وتقدم هذه العلوم بل وسيطرتها على توجيه دفة الحضارة الإنسانية فى العالم بأسره . تلك الطريقة التى لا تؤمن إلا بالتجارب لأنها سبيل التأكد من صحة الفروض . ولو نظرنا إلى موقف الطفل أثناء تعلمه لوجدناه يشبه فى طريقة تعلمه إلى حد كبير جدا عالم الطبيعة أو الكيمياء أثناء تجاربه داخل معمله . ينادى الطفل أمه فتستجيب إليه أحيانا ولكنها أحيانا لا تستجيب . عند ذلك يجرب طريقة أخرى غير النداء ... يلجأ إلى الحبو ولكن الحبو بطئ . عند ذلك يلجأ إلى المشى . . وهكذا يستمر فى تعلمه؛ يجرب هذه الطريقة ثم يتركها إلى غيرها وهكذا . وهو فى أثناء تجريبه يحذف الخطأ فلا يقيد به ويحتفظ بالصواب ويستمسك مادام يحقق أغراضه فى الحياة . وكذلك شأن العالم فى معمله بين الغازات والمساحيق وبين الأوانى والمخابير . يختبر خواص الأكسجين مثلا فيعرف أنه يساعد على الاحتراق . قد يجرب اكتشاف صفات أخرى فإذا لم يجد احتفظ بهذه الصفة المتميزة . ولكن لا يقف عند تحقيق غرضه واكتشافه ... بل يتخذ من هذا الاكتشاف وسيلة إلى تحقيق أغراض أخرى وقد نجح فعلا فى استخدام الأكسجين فى عمليات اللحام وفى صهر المعادن . وما لنا نذهب بعيدا وقد كان تحطيم الذرة غرضا يتجه إليه العلماء فأصبح الآن وسيلة إلى استخدامها فى التدمير كما تبذل الجهود الآن لاستخدامها كوسيلة من وسائل البناء والتعمير

ألا يحق لنا بعد توضيح هذا التماثل والتشابه بين الطريقتين الطبيعية والعلمية أن نقول إن الطريقة التى يتعلم بها الطفل أو الإنسان البدائى هى طريقة علمية أيضا ؟ !

لقد وضحنا مميزات الطريقة الطبيعية التى يتعلم بها الطفل داخل الأسرة ، ولكننا لم نوضح بعد موقف ولى الأمر فى الأسرة من الطفل خلال تعليمه ، وكيف يكون ؟ فإن ذلك بالنسبة لنا كربين من الأهمية بمكان حتى نستنتج حدود رسالة المربى كما يجب أن تكون

أما موقف الأم من ابنها فهو تمهيد السبيل أمامه حتى يستطيع السير فيها . تسدد محاولاته بإرشاده وتصحيح كلامه . تصحيح خطواته هو ، وإرشاده إلى مواضع الخطأ فى كلامه هو . هى لا تفرض عليه كلاما معينا أو السير وفق خطوات مرسومة . تصحح كلماته وجمله حتى تساعده على التعبير عما يجول بذهنه هو من رغبات وآراء قد تبدو مضحكة بالنسبة لنا ولكنها حيوية بالنسبة إليه . وتقف الأم نفس الموقف من طفلها حين يتعلم الشى تحوطه بعنايتها وتقيه ما قد يتعرض له من أخطار . تترك له الحرية فى الشى ، ولكن بعيدا عن أماكن السقوط . تأخذ أولا بيديه ثم بإحدى يديه ، ثم تتركه ولكن وهى أقرب ما تكون إليه حتى إذا اختل توازنه استند إلى صدرها الحنون

موقف الأم ، هو موقف المهد المعبد المذلل للعقبات ، لا موقف التحكم المسيطر المتربص للزلات

هذا هو الموقف الذى يجب أن يقفه المربى ممن يتعلم على يديه. وقد شبه بعض العلماء تمهد المربى لتلميذه وهو يتعلم ، كتمهد الزارع لنباته حين ينمو ، وشبهوا نمو التعليم فى هذه الحالة بنمو النبات . تنمو الشجرة منذ أن كانت بذرة فى باطن الأرض إلى أن تذبل وتموت . كذلك يجب أن يشبه التعليم النبات فى نموه ؛ فيستمر من المهد إلى اللحد ، والنمو فى النبات نمو تلقائى . تنمو الشجرة من تلقاء نفسها وبنفسها ، ولا يستطيع الزارع إصدار الأوامر إليها بالنمو سريعاً أو بطيئاً ، وكذلك يجب أن يكون نمو المتعلم تلقائيا أيضا

ولا يترك النبات مع ذلك هكذا دون عناية؟ بل إن الزارع يحوطه بعنايته دائما ويلازمه خلال أطوار نموه ، وهكذا يجب أن لا نترك المتعلم لنفسه

والنمو فى النبات عملية مشتركة بين الزارع وبين النبات ... وكذلك يجب أن يكون التعليم عملية نمو متواصل مشترك بين المعلم والمتعلم

ويشبه موقف الزارع من النبات الموقف الذى يجدر بالمربى أن ... يقفه فالزارع لا يترك نباته حرا ينمو كما يشاء ، وإلا اعوج عوده ، وما استقام له ظل قط . كما أنه لا يتركه بمفرده ليقاوم آفات الزراعة من ديدان وحشرات ، وإلا كان معنى ذلك أنه يتركه ليموت . وكذلك لا يجدر بالمربى أن يترك تلميذه هكذا حرا يفعل ما يشاء ، ولكن ليس معنى ذلك أيضا أن يقيد حريته ليتحكم فيه ويستعبده ، وهل يتحكم الزارع فى النبات فيطلب من بذور الجرجير أن تنتج تفاحا ، أو يأمر القمح بالنمو سريعا حتى يحصده بعد شهر ، بينما هو يحتاج إلى شهور ؟ كلا ، ولكنه يرعى نباته ويقف منه فى نموه موقف المدافع عنه ضد كل ما يعوق سير هذا النمو المتصل . يلتقط الديدان ويحرقها ، ويجلب السماد ، ويمنح نباته الماء ولكن بمقدار ، وفى ميعاد معين بالذات . وكذلك المربى سواء كان ولى أمر أم غيره، يجب ألا يصدر الأوامر إلى ابنه بأن يصبح طبيبا أو مهندسا ، وألا يجبره على تعلم ما لا يريد، وأن لا يحرمه من تعلم ما يريد . وإنما يجب على المربى أن يقدم المتعلم ما يطلبه بنفسه من زاد علمى ، وأن يزيل من طريقه العقبات حتى يستمر فى تعلمه وإشباع ميوله ورغباته ... وهذا يضطر المربى إلى التفكير فيما يجب تقديمه للمتعلم ، فيعمل هو الآخر ويشترك ... وتسير عملية التعلم سيرها الطبيعى: نمو مشترك وعمل متواصل من جانب المتعلم والمعلم ، وكما أن النمو هو دليل الحياة فى النبات. فهو كذلك دليل على حياة المتعلم أيضا

للكلام صلة

كمال السيد رويشى
ليسانسيه الآداب بامتياز — دبلوم معهد التربية العالى
مدرس بالرمل الثانوية

الأمر المؤثر
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك
وهى القصة الطلية الواقعية الرائعة الخالدة للشاعر
الفيلسوف « جوته » الألمانى
ثمنها ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد